برامج مجموعة

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

تشعر مجموعات الأمم أو غالبيتها بالرغبة فى أن يكون حالها أسعد مما هى عليه ، إذا استثنينا طوائف أو طبقات محدودة ، تجد مصلحتها فى أن تبقى حال المجموعة على ماهى عليه ، وتبقى نظمها كما هى .

ولا تفتقر الغالبية فى أى أمة من الأمم ، إلى جماعة صغيرة أو كبيرة من أبنائها ، تفكر — مجتمعة أو فرادى — فى أفضل صورة يمكن أن تصير إليها حال المجموع .

وقد تتفق هذه الجماعة الصغيرة ، أو آحادها ، العمر فى التفكير ، فيما يجعل من الأمة مجموعا أقرب إلى الكمال المثالى فى السعادة كما تصورها أذهان الناس لأصحابها . وتعيش الجماعة المفكرة معلومة من الأمة أو تحيا مجهولة منها ، لكنها فى أى من الحالين — ما دامت تفكر — تصلح سبيلا طيبة إلى إصلاح شامل وتقدم مقبول . وأقول إنها تصلح سبيلا طيبة لهذا الاصلاح ، ولا أقول إنها سبيل طيبة له ، حتى يقدر لتفكير هذه الجماعة مجتمعة — أو لتفكير آحادها منفردين — أن يخرج إلى المحيط الذى تحيا فيه أو يعيشون ، فيستمع إليه كل من لم يستمع إليه من قبل ، . ويناقش الناس هذا التفكير — أيا كان لونه أو كانت قيمته — مناقشة جدّية مجدية ، تصل به إلى أن ينقد بينهم نقدا كافيا ، يسمح للناس بأن يتبينوا موطن القوة فيه وموطن الضعف ، ويخطو هذا التفكير الأول إلى التنفيذ ، عندما ينشر بين الناس كبرنامج معلوم ، له أنصاره وله خصومه .

والخير للأمة ، كل الخير ، فى أن تنشر هذه البرامج المختلفة بين الناس جميعا ، ليميزوا السليم منها ويعرفوا الفاسد ، ولا بد من أنهم سيتفقون أخيرا ، أو تتفق غالبيتهم ، على برامج لإصلاح المجموع ، برامج سياسية واقتصادية وعلمية وصحية وغير هذه من صنوف البرامج .

وعند ذلك ، ترى الأمم أمرا طبيعيا فى أن تطلب جعل هذه البرامج أساسا لنظمها ودستورا لحكامها ومحكوميها . وتبقى الأمم ساهرة على تنفيذها ، كل يصون نفسه عن إتيان ما قد يخالف أحكامها ، وكل يظل متوثبا ليحاسب المسئولين عن رعاية تنفيذ هذه البرامج : ماذا ارتكبوا من خطأ أو إهمال أو تقصير ، وماذا عملوا موافقا للصواب والتزامات واجباتهم المفروضة ؟

وتبقى البرامج معمولا بها ، حتى يقدر الجماعة أن ترى الأخذ بغيرها من البرامج ، فتختار عنها بديلا . والخير للأمة دائما فيما تختاره ، ما دام اختيارها صادرا عن تفكير مطلق ، ومناقشة حرة ، وإرادة كاملة

* * *

بهذا وحده يمكن أن يكون تفكير الجماعات والآحاد تفكيرا نافعا فيما ، يؤدى إلى تقدم معلوم ، ويصل بالشعوب إلى مراتب العزة القومية والنهوض ، كما يصل بالآحاد إلى أن يحتلوا مراكزهم الاجتماعية الطبيعية . ولم يكن التفكير الحبيس فى ذهن صاحبه — فى يوم ما — سبيلا حقيقيا عمليا لإصلاح ما ، ولن يكون كذلك فى يوم من الأيام ، ولم تكن البرامج السجينة فى عقول أربابها — فى يوم ما — سبيلا حقيقيا عمليا لإصلاح ما ، ولن تكون كذلك فى يوم من الأيام . بل لا بد للتفكير — أيا كان لونه أو كانت قيمته — من أن يطلق من أسره وأن تحطم عنه القيود ، ليخطو خطواته الطبيعية إلى الحياة ، فيكون ذات يوم شيئا جديرا بالاحترام وحقيقا بأن ينتصر له الأنصار .

ولا بد للبرامج السجينة فى عقول الناس من أن تفتح لها الأبواب الموصدة ، لتخرج إلى حيث تسعى بين الناس ، فيعلم الخير منها من لا يعلم ، ويعرف الشر . . . ويفيد الناس أخيرا من خيرها ويتقوا شرها بقدر ما تسمح لهم ظروفهم . أما التفكير المقيد ، وأما البرامج السجينة ، فكأنها لم تكن ، لا تفيد الأمة منها شيئا . وإن كانت تخسر بدونها أشياء كثيرة . تخسر الأمة نتاج تفكير أبنائها وثمرة عقولهم الناضجة . . . وتخسر شعورها بإنسانيتها وبحقها فى أن تدلى بما تهوى وما تريد . . . وتخسر تقرير نظمها ووضع سياسة حكمها وفق مشيئتها ما دامت تحرم من أن تبوح بما يجول فى خواطر الآحاد .. وتخسر الوقت ... والزمن ... والتاريخ !

إن التفكير حق لكل بشر من قديم الأزل ، وإعلان هذا التفكير هو السبيل وحده لتخرج البرامج من الأذهان إلى الأذهان ، فتتفاهم العقول للخير ، حتى تستقر عند الصالح العام . وإعلان هذا التفكير حق لكل أحد وواجب عليه ، حق له كفرد له إنسانيته وله بشريته التى تميزه عن سائر الحيوان . وحق له كعضو فى مجموع أمة لها أن تقرر مصيرها وأن تضع نظمها كيف تريد ، وهو واجب عليه كفرد تجاه نفسه ، عليه أن يعلن تفكيره ، حتى لا يورثه — ما ظل سجينا : اليأس والحسرة ، فيهبط به عن مستوى الإنسان ... وواجب عليه كعضو فى مجموع الأمة ، عليه أن يعمله لتفيد الأمة من مختلف الآراء ، وليفيد هو أخيرا كعضو فى هذا المجموع البشرى .

لقد خرجت بعض البرامج عندنا فى هذا البلد من الأذهان ، لكنها حبست فى الورق . حبست فى صفحات الصحف والمجلات ، وحبست فى سجلات جلسات مجلس الشيوخ وجلسات مجلس النواب ... ، وحبست فى كتب تصدر على مر الأيام ، وحبست فى تقارير خبراء وفى مذكرات موظفين مسئولين ... ، حبست بين سطور هذا الورق حتى كأنما ضاعت قيمتها بين ضجة آلات الطباعة ! أين ذهبت هذه البرامج التى قدر لها أن تخرج من الأذهان ، وأن تصير شيئا معلوما قابلا للبحث والمناقشة والتقرير والتنفيذ ... ؟ إنها لم يبق منها غير تلال من الورق سجنت فى دور محفوظات الدولة والهيئات والآحاد .. لا يفرج عنها إلا بعد سنين ، ولا يفرج عنها لتجد سبيلها إلى الحياة الحرة ، بل لتحرق وتذهب رمادا ... وتخلى أمكنتها لتلال من الورق ، أخرى تحبس ... لتحرق بعد حين !

وأصحاب هـذه البرامج المحبوسة فى الورق ، ما بالهم لا يتحمسون لبرامجهم ، وما بالهم لا يجددون دعوتهم إلى الأخذ بها كلما رأوا لهذا التنفيذ وقتا مناسبا ... ؟ بل ما بال بعض هؤلاء — أو أكثر هؤلاء — ينسون هذه البرامج أو يتناسونها إذا آل إليهم سلطان التنفيذ ..؟ ما بالهم يتنكرون لها ، فينفذوا فى حاضرهم نقيض ما كانوا يقررون فى أمسهم القريب...؟ !

هذه ظاهرة خطيرة الشأن ، جديرة بأن ينتبه الناس إليها ، وأن يتساءلوا عن أمرها . إن هذه البرامج المحبوسة فى الأذهان ، أو المحبوسة فى الورق ، ثروة اجتماعية كبرى من حق المجموع أن تجـد الأولى سبيلها إلى الظهور ، وأن تجد الأخرى سبيلها إلى المناقشة والتقرير ثم التنفيذ . وبقاء هذه البرامج محبوسة فى الأذهان أو فى الورق ، خسارة على الأمة جسيمة ، يسأل عنها ، أمام الضمير البشرى ، أولئكم الذين حبسوها فى أذهانهم أو فى أوراقهم ، وأهملوا فى إطلاقها من قيدها ، أو جبنوا دون ذلك . ويسأل أيضا أولئكم الذين كان فى مقدورهم أن يمهدوا لهذه البرامج أن تطلق من أسرها ، لكنهم حالوا دون ذلك ، أو قصروا فيه ما

عماد الدين عبد الحميد